الفلسفة الأخلاقية الأرسطية.

Aristotelian Moral Philosophy.

عبد المجيد بلدي عثمان.
جامعة أبو القاسم سعد الله؛ الجزائر 2 (الجزائر).
البريد الالكتروني: *beldimadjid@yahoo.fr*

تاريخ الإرسال: 21/06/04؛ تاريخ القبول:21/11/26؛ تاريخ النشر:21/12/16

الملخص:

يبقى المشكل الأخلاقي يؤرق تفكير الفلاسفة، منذ بدايات التفكير الفلسفي إلى يومنا هذا، في محاولة منهم لإيجاد أنموذج لفلسفة أخلاقية، يتم من خلالها ضبط معيار أخلاقي يصلح لأن يكون أساسا لتنظيم وتقييم سلوك الإنسان. وقد ترتب عن ذلك ظهور عدة مواقف لفلاسفة برزت في نظريات ومذاهب فلسفية متعددة. فهل استطاعت هذه النظريات والمذاهب أن تحل المشكل الأخلاقي، وتتجاوز بذلك الطرح الأخلاقي للفلسفة اليونانية المتمثل في نظرية أرسطو في الأخلاق؟ أم أن الأمر زاد من تعقيد المشكلة، بظهور مذاهب أخلاقية متعددة في مختلف مراحل تاريخ الفكر الفلسفي؟ لمعرفة ذلك لابد من إعادة دراسة المشكل الأخلاقي من مصادره، ويعتبر الفيلسوف اليوناني أرسطو أبرز مصدر من مصادر الفلسفة الأخلاقية في تاريخ التفكير الإنساني.

الكلمات المفتاحية: الفلسفة الأخلاقية؛ الأخلاق إلى نيقوماخوس؛ اللذة؛ الفضيلة؛ السعادة.

Abstract:

From the beginnings of philosophical thought to the present day, the moral problem is still plagued by philosopher' attempts to find a model of moral philosophy, through which a moral standard is set to serve as a basis for organizing and evaluating human behaviour. This has resulted the emergence a several positions of philosophers emerged in theories and doctrines of multiple philosophies. Were these theories and doctrines able to solve the moral problem, and thus exceed the moral proposition of Greek philosophy of Aristote'theory of ethics? Or is it complicated by the emergence of multiple moral doctrines in various stages of the history of philosophical thought? To know this it must re-examing the moral problem of its sources, the Greek philosopher Aristotle is considered to be the most important source of moral philosophy in the history of human thought.

Keywords: Philosophical ethics; Nicomachean Ethics; pleasure; virtue; Happiness.

مقدمة:

إن الأخلاق في الفلسفة اليونانية ليست أخلاق واجب وإنما هي أخلاق سعادة. فليس السلوك الأخلاقي ما يدفع إليه الواجب وإنما هو ما يؤدي إلى السعادة، ذلك أن الخير والسعادة أمر واحد، ويدلان على نفس المعنى. وعليه فإذا كانت قاعدة السلوك الأخلاقي عند كانط تقول: (إفعل الفعل لأنه واجبك)، فإن هذه القاعدة عند اليونان تقول: (إفعل الفعل لأنه يحقق سعادتك) (د. مرحبا محمد عبد الرحمان، 1981: 204).

ولعل أبرز الفلاسفة اليونان الذين يمثلون هذا الاتجاه في فلسفة الأخلاق، أرسطو، خاصة في كتابه "الأخلاق إلى نيقوماخوس" الذي يعتبر أهم كتبه في هذا المجال مقارنة مع كتبه الأخرى مثل: الأخلاق الكبرى، والأخلاق إلى أوديموس. إلا أن كتاب " الأخلاق إلى نيقوماخوس" يعتبر الأكثر تأثيرا في الدراسات الفلسفية الأخلاقية. فمن كانط إلى جون رولز، كل الفلاسفة ناقشوا مع أرسطو المسألة الأخلاقية.

الفلسفة الأخلاقية الأرسطية:

يطرح أرسطو في فلسفته الأخلاقية مسألة الفضيلة، كيف يتصرف الإنسان الفاضل؟ والإنسان بالنسبة إليه ينبغي أن يتصرف وفق العقل. فالأخلاق تقوم على أساس الفعل والنتيجة، ومعيار الخير لا يتمثل في النية أو الإرادة الخيرة كما هو الأمر بالنسبة لكانط، وإنما يتمثل عند أرسطو في الغاية من الفعل. فبالنسبة لأرسطو لا تكفي النية لتحديد الفعل الأخلاقي، إذ ينبغي لها أن تتوج دائما بالفعل الناجح؛ وبما أن الغاية من الفعل الذي يقوم به الإنسان تختلف باختلاف الأفراد والجماعات، واختلاف الظروف والدوافع، فهل يمكن لها أن تجد حلا من خلاله يمكن تجاوز الاختلاف الذي تتسم به المعايير الأخلاقية أم أنها أخلاق كغيرها تعكس فكر صاحبها وخصائص المكان والزمان الذي ينتمي إليهما؟

ليس بالإمكان الإجابة على هذا التساؤل إلا بعد معرفة الأساس الذي يستند إليه المعيار الأخلاقي، والذي من خلاله يمكن التمييز بين ما هو خير وما هو شر في تصرفات الإنسان.

إن فلسفة أرسطو الأخلاقية تنطلق من قاعدة عرّف فيها الإنسان أنّه مدني اجتماعي بطبعه، ففطرة الاجتماع هذه تجعل الإنسان مدفوعا إلى الاجتماع مع غيره من الناس، وذلك من أجل تضافر الجهود التي تهدف إلى تأمين الحاجات اللازمة من أجل تحقيق سعادة الفرد، وسعادة المجتمع. فالسعادة الناتجة عن السلوك، والتصرف الراشد، والعمل المنضبط، ومختلف الأفعال الطيّبة هي غاية الاجتماع البشري.

وبالاعتماد على هذه القاعدة، يكون أرسطو قد اتجه إلى استقراء الواقع لتحديد القيم الأخلاقية. وهو بذلك قد خالف أستاذه أفلاطون في دعوته إلى تجاوز الملذات وكبتها من أجل السمو إلى عالم المثل. كما أنه خالف سقراط الذي اعتبر الإنسان مفطور على الخير، وأن القيم والمعارف تتصف بطابع فطري بحيث تكون موجودة في ذهن الإنسان ويتمّ توليدها منه بالحوار والنقاش.

يرى أرسطو أن الهدف الأساسي من الحياة لا يتمثل في الخير في حد ذاته، وإنما يتمثل في السعادة. وفي تحديده للخير، يقول أرسطو: "إذا كانت كل معرفة وكل اختيار إنما يتشوّق خيراً ما، فما الخير الذي نقول إن تدبير المدن يتشوّقه ويقصد قصده؟... وهذا الخير الذي هو أعلى وأرفع من جميع الأشياء التي تفعل. فنقول: إنّه يكاد أن يكون أكثر الناس قد أجمعوا عليه بالاسم، وذلك أن الكثير من الناس والحذّاق منهم يسمونه السعادة، ويرون أن حسن العيش وحسن السيرة هي السعادة"(أرسطو طاليس، 1979: 57). والإنسان يختار السعادة لذاتها وليس لشيء آخر، وذلك لأن الخير وتحصيل السعادة يدلان على معنى واحد، والفعل الأخلاقي هو الفعل الذي يهدف إلى السعادة ويحققها.

لكن إذا اعتبرنا السعادة هي مقياس الفعل الأخلاقي، وأنها الغاية القصوى للحياة، وتطلب لذاتها، وغايتها تكمن في ذاتها، ألا يترتب عن ذلك أن معيار السلوك الأخلاقي يأخذ البعد النسبي، بفعل اختلاف البشر في تحديد مفهوم السعادة، فتصبح كل أخلاق قائمة عليها تمثل موقفا من بين مواقف أخرى متعددة، الأمر الذي يجعل القيمة الخلقية للسلوك الإنساني تمثل مجموعة من القيم المختلفة وربما المتناقضة، فيلتبس الأمر في تقييم الفعل الصادر عن الإنسان إن كان أخلاقيا أو غير ذلك.

لكن حتى لا يكون هذا الحكم متسرعا، ينبغي معرفة مفهوم السعادة عند أرسطو. فما هي السعادة؟ وما طبيعتها؟

تمثل السعادة عند أرسطو حالة من أحوال النفس البشرية. وهو في ذلك على العكس من أستاذه أفلاطون، لا يتحدث مثله عن الثنائية بين النفس والبدن، وأن البدن هو سجن النفس، وإنما ينظر أرسطو إلى أن العلاقة بين النفس والبدن هي علاقة تلازم تشبه علاقة المادة بصورتها، وبالتالي لا يمكن أن يكون هناك فعل نفسي إلاّ وله أثر جسدي، والعكس صحيح.

إلا أن أرسطو الذي حدّد خير الإنسان والمجتمع بالسعادة المرتبطة بالنفس والبدن معاً، أعطى الأولوية للنفس في فعل الخير، وسلوك طريق الفضيلة. وهو ينظر إلى النفس من خلال جوانب ثلاثة أساسية هي:

1. جانب نباتي أو حيواني، وهو مشترك بين الإنسان والحيوان والنبات، يخضع للضرورة الفيزيولوجية، وعليه فهو جانب لا

يخضع لرقابة العقل والإرادة، وبالتالي فهو غير معني بالأخلاق، والمسؤولية، والعقاب.

2. جانب غريزي، يشترك فيه الإنسان والحيوان، وهو جانب يتجلى في الرغبات والعواطف والأهواء، وهو قاصر بذاته عن أن يصير فكرا، ووعيا، وضميرا.
3. وأخيرا، جانب يتمثل في القوة العاقلة أو الناطقة، وهو الجانب الذي يميز الإنسان عن غيره. وهو القوة القادرة على التفكير والتأمل (بليمان عبد القادر، 2012: 20).

تعتبر القوة العاقلة أرقى قوى النفس الإنسانية، وينبغي لها أن تكون المرشد والموجه لسلوك الإنسان، والضابط لتصرفاته، حتى يتصف سلوكه بالفضيلة، ويتحقّق الخير. أما إلغاء قيادة العقل للسلوك وتعطيلها، فإن ذلك بترتب عنه انتشار الرذيلة في الأفعال. وسيطرة القوة العاقلة على السلوك وقيادته، يجب أن تكون مستمرة ومتواصلة، حتى تكون الفضيلة سمة عامة لكل ما يصدر عن الإنسان. يقول أرسطو إن: "الخير الذي يخصّ الإنسان هو فعل للنفس على ما توجب الفضيلة. فإن كانت الفضائل كثيرة، فهو فعل ما يوجب أفضلها وأكملها. وإنما يكون هذا الفعل في السيرة الكاملة، لأن خطّافاً واحداً لا ينذر بالربيع، ولا يوماً واحداً معتدل الهواء ينذر بذلك"(أرسطو، 1979: 68).

وعلى هذا الأساس فان سعادة الإنسان لا تتحقق إلا بما يتميز به الإنسان على سائر الموجودات، وذلك بممارسته للحياة العاقلة على الوجه الأكمل. بهذه الممارسة للحياة العاقلة تتحقق السعادة والخير الأقصى للإنسان. فالسعادة تتحقق من خلال عمل النفس الناطقة وحدها بما هي كذلك، وفق فضيلتها ووظيفتها الخاصة. وإذا كانت

أمام عدة فضائل، فان الخير الأسمى يكون في أكملها. وهذا لا يحدث دفعة واحدة، وإنما يكون ذلك عبر مراحل الحياة (مرحبا محمد عبد الرحمان، 1981: 205).

وعليه فمادام الإنسان يمتاز عن غيره بقوة عقله وفكره، عليه أن يطور هذه القوة التي مكنته من السيادة، عندئذ ستتحقق له السعادة، فالفضيلة تقوم على الرأي الواضح، وضبط النفس، وفن الاعتدال، وذلك لا يتحقق إلا بفعل الخبرة المتطورة للإنسان.

إن سلوك الإنسان يتّجه إلى الكمال كلما كان العقل هو المسيطر على الأفعال، لأن اقتناع الإنسان بوجود قيم فاضلة لديه، هو الذي يجعل سلوكه في حالة من السعي الدائم والمتواصل من أجل تحقيق المزيد من الكمال. فالإنسان الفاضل، هو الإنسان الذي يتصف بمواقف ثابتة، تدفع بسلوكه نحو قيم الخير، ولا يتأتى ذلك إلا للإنسان الذي اتصف بالسعادة. ومن الواضح "أن الثبات الذي ننشده ينتسب إلى الإنسان السعيد، الذي سيظل سعيداً طوال حياته كلّها؛ لأنه سيقوم بأفعال وتأملات موافقة للفضيلة" (أرسطو، 1979: 76). وهذا الإنسان الذي يقترن لديه الفكر الفاضل بالفعل الفاضل، هو الذي يستطيع أن يتجاوز تقلبات الحياة من شدة ورخاء.

والإنسان الفاضل الذي يستند في اختيار تصرفاته على قيم أخلاقية، حسب أرسطو، لا يكفي أن يمتاز بالمعرفة كما هو الحال عند سقراط، بل يجب أن تتجسد أفكاره الفاضلة في أفعال فاضلة، وأن تكون الأفعال الفاضلة سمة عامة له في كل الأحوال، ومهما قست الظروف، لأن الطريق الذي يسلكه الإنسان الفاضل والمنهج الذي يتبعه في سلوكه يجب أن يترسخ بالتدريب في كل الأحوال

والظروف، ولا ينبغي أن يكون مؤقتا أو مرحليا، أو مرتبطا بظروف ومواقف محددة. فأرسطو يؤكد أن بحثه لا يهدف إلى ضبط طبيعة الفضيلة، وتحديد مفهومها، وإنما إلى يهدف إلى معرفة الوسيلة التي بها يصبح الإنسان فاضلا(Aristote,2014: 43) .

والفضيلة بالنسبة لأرسطو مرتبطة بالنفس، وبالتحديد القوة العاقلة منها، والتي بها يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات. لذلك يقول: "لست أعني بالفضيلة الإنسانية فضيلة الجسد، بل فضيلة النفس. ونحن نقول إن السعادة أفضل للنفس. فواجب على صاحب تدبير المدن أن ينظر في أمر تدبير النفس... وأن يعلم أحوال النفس كيف هي"(أرسطو، 1979: 81). وهكذا تكون الفضيلة لدى الإنسان بفعل ما تقوم به القوة العاقلة في النفس من توجيه للسلوك، فالإنسان يكون قادرا على تدبير شؤون المدينة أكثر من غيره عندما يوجه أعماله نحو الفضيلة، (Aristote, 2014 :38) فتتحقق السعادة التي تمثل الخير، وهي غاية الفعل الأخلاقي.

وهذه السعادة لا تتمثل فيما يطلبه الجسد من رغبة ولذة، وإنما هي سعادة نفسية. وبذلك تكون فضائل السلوك، والقيم الأخلاقية التي يستند إليها هذا السلوك، أموراً مرتبطة بتدبير القوة العاقلة للنفس، والتي تكتمل في التبصر.

ويختلف أرسطو عن سابقيه من الفلاسفة اليونان، خاصة سقراط وأفلاطون، في اعتقاده أن النفس لا يمكن أن يكون لها وجود خارج الجسد، أو سابقة عنه، وإنما توجد بوجود الجسد الذي تحل فيه. وقيمة الفضيلة عند أرسطو لا تكمن في ماهيتها، وإنما تتجسد في الأشياء، فهي تفترض الانتقال إلى الفعل، وأرسطو يؤكد أن الأخلاق

عنده ليس هدفها تعريف ما هي الفضيلة، وما هي حقيقتها، الأمر الذي لا يفيد شيئا(G.Romeyer-Dherbey,1983 :252)، وإنما ينبغي معرفة الكيفية التي تسرى بها هذه الفضيلة في السلوك الإنساني، ونتيجة لذلك فإن القيم الأخلاقية التي تعتبر أساسا لفضائل الأعمال التي تحقق الخير والسعادة، هي قيم مكتسبة بالممارسة وليست أمورا قبلية كامنة في ضمير الإنسان وفكره، إذ من خلال الممارسة الدائمة والمستمرة للأعمال الفاضلة، والتعود عليها، يصبح الإنسان فاضلا.

وإذا كانت الفضيلة تقوم على التعود، وتتكون تدريجيا عن طريق القيام بأعمال فاضلة، فإن الجانب الموضوعي والجانب الذاتي في الفعل الأخلاقي مرتبطان ومتكاملان، فالفعل يغذي القابلية والاستعداد لفعل الخير، والإنسان الفاضل يخرج قابليته في الأفعال التي يقوم بها، في حين أن المنافق تكون أفعاله الخارجية مناقضة لداخليته(G.Romeyer-Dherbey,1983 :260). إذن فالفضيلة تكتسب بالممارسة والعادة، والإنسان لا يفعل الصواب لأن لديه فضيلة، ولكن الفضيلة موجودة فيه لأنه يفعل الصواب. فالفضائل تتشكل في الإنسان بعمله لها والقيام بها، وذلك لأن الإنسان عبارة عما يفعل دائما، يقول أرسطو: "أما الفضائل فإننا نكتسبها إذا استعملناها أولا، كالحال في سائر الصناعات، لأن الأشياء التي ينبغي أن نعملها إذا تعلمناها، هنا إذا عملناها تعلّمناها، مثال ذلك إذا بنينا صرنا بنّائين، وإذا ضربنا العود صرنا ضاربين للعود، وإذا فعلنا أمور العدل صرنا عادلين، وإذا فعلنا أمور العفّة صرنا أعفاء، وإذا فعلنا أمور الشجاعة صرنا شجعانا"(أرسطو، 1979: 86).

والسعادة عند أرسطو هي اللذة الناشئة من تحصيل الإنسان لكمال الفعل المقوم لطبيعته، وعليه فإن اللذة عند أرسطو هي صورة السعادة، ويبتعد أرسطو عن المعنى التجريبي للذة، ويعطيها معنى مختلفا عن المعنى الذي دفع بأفلاطون إلى الثورة ضد اللذة. فأرسطو ينظر إلى اللذة نظرة غائية، باعتبارها كمالا وتحققا بالفعل، فاللذة ليست حركة مستمرة في تغير دائم، وإنما هي حالة تتويج مطلق. وبهذا المعنى يختلف مفهوم أرسطو للأخلاق عن مفهوم أفلاطون لها، والذي عارض اللذات على أساس أنها متغيرات من عالم الصيرورة. والمفهوم الذي قدمه أرسطو للذة، يجعلها لا تتحقق في الواقع إلا بالنسبة إلى كائنات لا تتغير هذا التغير في الأحوال.

لذلك فان أرسطو يتجاوز مبدأ اللذة البسيطة الساذجة إلى لذة هي أقرب إلى الخير، وذلك عندما يعتبرها تحصيل الكمال الممكن بالنسبة إلى الكائن، أو إدراك الملائم بما هو ملائم. فاللذة مثل التاج الذي يعلو كل نشاط، مثل ما هو الأمر بالنسبة للخير الأفلاطوني الذي يعلو على الموضوعات(بدوي عبد الرحمان، 1984: 123).

يرى عبد الرحمان بدوي في موسوعته الفلسفية، أن أرسطو في مفهومه للذة متناقض، فهو ينظر إليها وكأنها الخير الأسمى، فيشيد باللذات الحسية المألوفة مثل الثروة والشهوات المختلفة، لكنه من ناحية أخرى يترفع عن هذا التصور للشهوات، لكي ينظر إلى اللذة على أنها خلو من كل حركة، وأنها سكون مطلق، وكمال تام.

وعليه فالخير الأسمى لا يتحقق إلا في الحياة النظرية المجردة، لأنه تحقيق لأعلى درجة من درجات الكمال، والسكون بالنسبة للإنسان يتم في هذه الحالة.

يتضح مما سبق أن أرسطو كان في البداية تجريبيا حسيا، ثم أصبح بعد ذلك يتحدث عن لذة نظرية مجردة، هذا الانتقال بين ما هو حسي تجريبي وما هو عقلي مجرد في ضبط مفهوم اللذة الذي يحدد معنى السعادة، والتي تعتبر غاية الفعل الأخلاقي، يثبت أن المفاهيم والتصورات يضبطها الفيلسوف حسب قناعاته هو، والتي يمكن لها أن تتغير بتغير الإيحاءات الفكرية التي يتعرض لها هذا الفيلسوف من محيطه الثقافي، والاجتماعي، والسياسي، والظروف الزمانية والمكانية لعصره.

يضيف أرسطو في ضبط مفهوم اللذة، إذ يرى أن معناها ليس مرتبطا دائما بالملائم، وإنما معناها أن يحقق الإنسان فعلا يهدف إليه، وعليه قد يعيش الإنسان حياة مليئة بالآلام تنتهي بالسعادة، فإن ذلك هو السعادة، فمادامت هذه الآلام تحقيقا للفعل فهي ليست مضادة للذة. ويشبّه أرسطو هذا التصور المعنوي أو التجريدي للذة باللعب، فتحقيق الفعل غاية في ذاته، وهو مثل اللعب، لا يقصد منه تحقيق غاية، وإنما النشاط المبذول في اللعب هو الغاية من اللعب (بدوي عبد الرحمان، 1984: 123). بهذه الكيفية يضبط أرسطو مفهوم اللذة في تحصيل كمال الفعل، ويكمن دور الفضيلة في أن يحقق الإنسان الكمال الممكن بالنسبة إليه.

والفضيلة الأخلاقية عند أرسطو تقوم على التوازن بين العقل والحس، فهي ليست إسرافا في تجسيد اللذات الحسية، ولا مبالغة في قمعها لصالح النفس. فالإفراط والتفريط كلاهما خروج عن طريق الفضيلة، و يمثلان انحرافا في السلوك، يستحيل معه بلوغ السعادة. فالفضيلة هي توسّط واعتدال، بدون إفراط أو تفريط، والفضائل عند

أرسطو نوعان: فضائل عقلية خاصة بالقوة الناطقة، وفضائل أخلاقية خاصة بالقوة الغريزية أو الشهوانية حين تطيع أوامر العقل، تتمثل الفضائل العقلية في العلم والفن والحكمة . . . ، وهي فضائل تكتسب بالتعلم، واكتسابها يتطلب وقتا وخبرة، والحكمة النظرية هي أم الفضائل، لأنها الفضيلة الوحيدة التي يشارك الإنسان بها الله، وقد يتاح للإنسان أن يتمتع بها، لذلك فان سعادته ليست كاملة مثل السعادة الإلهية المطلقة؛ أما بالنسبة للنوع الثاني من الفضائل فهي مثل الشجاعة والعفة والكرم . . . الخ، هذه الفضائل تكتسب بالتعود، والممارسة، والإرادة، والوعي، وهي ليست مطبوعة فينا، والا لما أمكن الاتصاف بأضدادها، كما أنها لا تضاد الطبع، وإلا لما أمكن الاتصاف بها، فالإنسان مهيأ لاكتسابها، فهي موجودة في الإنسان بالقوة، وعن طريق الممارسة والعادة تكتمل وتصبح بالفعل.

بالنسبة لهذه الحالة الثانية من الفضائل، نجد في الواقع أحوالا متعارضة، نستخلص منها حالة متوسطة، تمثل الطابع الأصلي للفضيلة، والتي هي وسط بين طرفين، أحدهما إفراط والآخر تفريط. وتحقيق الفضيلة هو طريق الوسط الذهبي، حيث تكون الفضيلة وسط بين رذيلتين، فالشجاعة وسط بين التهور والجبن، والكرم وسط بين البخل والإسراف، والطموح وسط بين الكسل والجشع، والبشاشة وسط بين الكآبة والمزاح، ومادام الوسط بين الإفراط والتفريط هو الفضيلة، فلا يوجد إلا طريق واحد للخير، بينما هناك ألف للشر(Aristote, 2014 : 49).

إلا أن هذا الوسط ليس رياضيا يمكن ضبطه بدقة، وإنما هو وسط متذبذب لا يثبت على حل واحدة، لأن أفعال الناس ليس

بإمكانها أن تخضع لدقة رياضية، كما أن البشر يختلفون في طباعهم واستعداداتهم وظروفهم. وهذا الأمر يعمق معنى الفضيلة عند أرسطو فيجعلها ملكة خلقية إرادية راسخة في النفس تجعل صاحبها قادرا على تجاوز الإفراط والتفريط واختيار الوسط المناسب بينهما، بناء على مبدأ عقلي سديد(د. مرحبا محمد عبد الرحمان، 1981: 204)، بينما تصبح الرذيلة أحد طرفي الإفراط والتفريط اللذان كلاهما شر.

لكن ذلك لا يعني أن جميع الأفعال والانفعالات لها أوساطا، إذ منها ما لا وسط له، مثل انفعالات: الحسد، والغيرة، والغيظ، وأفعال: السرقة، والقتل، والزنا، فهي كلها صفات شر، وهي رذائل بالذات لا بالإفراط أو بالتفريط، كما أن هناك فضائل لا يمكن تحديد طرفيها، مثل الصدق، فهو ليس سوى ضد الكذب.

ويرى أرسطو أن الشباب هو زمن التطرف، فعندما يرتكب الشباب خطأ، فان هذا الخطأ يتجه إلى التطرف والمبالغة، والتطرف الواحد يؤدي بسهولة إلى تطرف آخر، والمتطرفون لا يرون الفضيلة في التوسط. والذي يشعر بتطرفه في أمر لا يطلق اسم الفضيلة على الوسط، ولكن على التطرف المقابل لتطرفه، وقد يكون ذلك حسنا، لأن الإنسان إذا شعر بخطئه في أمر متطرف فانه يتوجه إلى الأمر الآخر، إلى أن يصل إلى موقف وسط، أما المتطرف الذي لا يشعر بتطرفه، ويعتقد أنه خيرا وصوابا، فانه ينظر إلى الوسط الذهبي على أساس كونه رذيلة، ويصف الإنسان المعتدل وصفا سيئا، فالجبان يعتبر الشجاعة تهورا، والمتهور يعتبر الشجاعة جبنا.

يرى ويل ديورانت في كتابه (قصة الفلسفة) أن مبدأ الوسط والاعتدال يميز كل منهج من مناهج الفلسفة اليونانية، فقد ظهر هذا

الوسط عند أفلاطون الذي عرف الفضيلة بأنها انسجام العمل، وسقراط الذي عرف الفضيلة بالمعرفة، وقد نقش على معبد (أبولو) في (دلفي) عبارة (لا شيء في إفراط) (ديورانت ويل، 1985: 88، 89).

وربما ذلك يعكس الشعور اليوناني بأن العواطف ليست رذائل في حد ذاتها، وإنما التطرف والانحراف في العواطف هو الذي يؤدي إلى الرذائل، بينما الانسجام والاعتدال يعتبر من الفضائل، هذا الشعور الذي يستقي الفضيلة من وسطية العواطف واعتدال الانفعالات، يتعارض تماما مع فلسفة الأخلاق عند كانط والتي تعتبر الفعل أخلاقيا متى كان منزها عن أي رغبة أو عاطفة، وكان صادرا عن أوامر عقلية مطلقة. هذا الاختلاف في المواقف الفلسفية حول الطرح نفسه، يبتعد بالمشكل الأخلاقي عن إيجاد حل للمشكل الأخلاقي.

إذن فإن الخير عند أرسطو هو فضيلة التوسط، وهو غاية للإنسان الفاضل من أجل تحقيق سعادته وسعادة مجتمعه، لكن أرسطو يحدد لكل نوع من الأفعال الخير الخاص به، فالخير "في الطب: الصحة، وفي تسيير الحرب: الانتصار، وفي فن البناء: المنزل، وفي كل فن شيء آخر، لكن في كل فعل وفي كل اختيار، الخير هو الغاية" (Aristote, 2014 : 27). هذا التحديد الأرسطي يعطي للإنسان مقياساً دقيقاً لكل فعل يقوم به، من خلال إدراك الغاية من ورائه، حتى تتحدد معايير الفعل الأخلاقي، إذ بدونها يقوم كل فرد بما يرغب، دون مبالاة بالنتائج، ومبرر ذلك أنه كان ينوي خيرا.

والإنسان عند أرسطو حر ومسؤول على ما يصدر عنه من أفعال، فهو يرى أن: "الفضيلة من الأشياء التي هي إلينا...، وإن كان فعل

الجميل إلينا، ففعل القبيح إلينا...، فإلينا إذاً أن نكون أخياراً أو أشرارا"(أرسطو، الأخلاق: 118).

ينتقل أرسطو بعد ذلك إلى بعض الفضائل التي تشكل أساساً مهماً في تحقيق الخير العام، وأهم هذه الفضائل، الصداقة القائمة على أساس المحبة، فـ"الصداقة المثالية هي من الرجال الأفاضل والذين يتشابهون في الفضيلة " (Aristote, 2014 : 174).

وهكذا تكون الصداقة من الفضيلة، فهي ضرورية لشؤون الحياة الاجتماعية، باعتبار أن الإنسان اجتماعي بطبعه، وفي حاجة متبادلة مع غيره، يكون فيها التعاون ضروريا، ولا يتأتى ذلك إلا بفعل المحبة المتبادلة والصداقة. وبهذا تكون المحبة ضرورية لتحقيق سعادة الإنسان. ومن نتائج هذه المحبة، تحقيق الانسجام بين الأفراد، الأمر الذي يؤدي إلى انتظام العلاقات فيما بينهم على أسس سليمة، تكون ضمانا لتحقيق العدل، "فلو أن المواطنين يمارسون الصداقة فيما بينهم، لن يكونوا أبدا في حاجة إلى العدل، ولكن حتى و إن كانوا عادلين، يبقون في حاجة إلى الصداقة " (Aristote, 2014 : 171).

والعدل يعد أفضل أنواع الروابط بين البشر، وذلك لأن الظلم والتسلط، يفتح الطريق للرذائل من شهوات وأنانيات، وما يترتب عنها من حسد وبغضاء، وهي صفات لرذائل تتناقض مع الفضيلة، بينما الصداقة تتناقض مع الأنانية، بحيث أن الصداقة بين الأخيار تحكمها قوى النفس العاقلة، وتخضع للحكمة، ويكون عنوانها الإيثار والتضحية، وبذلك تتحقق فضائل السلوك، التي تحقق الخير العام للمجتمع، بهدف بلوغ السعادة.

انطلاقا مما سبق نجد أن أرسطو قد اهتم في المجال الأخلاقي بالبحث في أفضل طريقة في الحياة لتحقيق السّعادة، معتبرا أنّ السعادة هي غاية الغايات أو أنها ما يطلب لذاته دائما وكل الأشياء الأخرى إنما تطلب كوسيلة لتحقيقها. كما اعتبر أن السعادة تكون بالممارسة، مركزا على الاعتدال والتوسط في الأفعال، باعتبار أن ذلك يعد أحد شروط تحقيق الحياة السعيدة، ولا يتأتى للإنسان ذلك إلا من خلال ما يتصف به الإنسان وهو العقل.

وهكذا فان فلسفة الأخلاق عند أرسطو ترتكز على اعتبار السعادة هي غاية الحياة، وهي الخير الأسمى، وقد جعل من السعادة أسمى الفضائل الأخلاقية كلها على أساس أنها غاية الغايات، أو الغاية النهاية المطلوبة لذاتها. وأما الفضائل الأخلاقية الأخرى، ليست إلا وسائل يتم من خلالها الوصول إلى الخير الأسمى.

وعلى هذا الأساس الذي تقوم عليه فلسفة الأخلاق عند أرسطو ينبغي توجيه السلوك العقلاني للإنسان، ففضيلة الفضائل هي العمل بالعقل في اتجاه الخير الأسمى، وهو السعادة التي يعتبرها أرسطو غاية في ذاتها.

إن فكرة السعادة كأساس يهدف إليه السلوك الأخلاقي، تعرضت للكثير من الانتقادات، من طرف فلاسفة اختصوا في فلسفة الأخلاق، مثل ما هو الأمر بالنسبة لكانط، فهذا الأخير يرى أنه لا يمكن تأسيس أخلاق لا تحمل طابع التناقض في معيارها بناء على نزعة ما من نوازع الطبيعة الإنسانية، ولا ينبغي أن نجعل من رغبتنا في السعادة مبدأ للأخلاق، لأن الرفاهية لا تنسجم دائما مع الخير والفضيلة، إذ من غير الممكن أن تجعل الإنسان سعيدا انطلاقا من

جعله خيّرا، هذا بالإضافة إلى أن مفهوم السعادة إذا نظرنا إليه من وجهة نظر تحليلية فسنجد أنه لا يتضمن مفهوم الخير الأسمى ولا يمكن استنباطه منه منطقيا.

وبالتالي فإن هذا المفهوم لا يصلح كمعيار للتمييز بين الفضيلة والرذيلة ولا يمكن من تقدير ما إذا كانت للسلوك قيمة أخلاقية أم لا. هنا يكمن النقص الأساسي في نظرية الأخلاق الأرسطية في نظر كانط (أغبال أحمد، 2008).

خاتمة:

من خلال هذا الموقف الكانطي الناقد لفكرة السعادة كأساس لفلسفة أرسطو الأخلاقية، يتضح أنه أساس أبعد عن أن يكون معيارا يحمل طابع الاتفاق، وذلك لأن السعادة كتصور تحمل طابع الاختلاف، وتحديد معناها وفق ما قدمه أرسطو يمثل وجهة نظره في ذلك، التي تختلف مع وجهات نظر أخرى. وعليه فإن طابع الاتفاق حول مسألة السعادة كأساس للسلوك الأخلاقي غير قائم، إذ يحمل في طياته مبدأ نسبيا يختلف باختلاف الأمكنة والأزمنة، وهذا الاختلاف في تشخيص مفهوم السعادة يربك الميزان الفلسفي للأخلاق ويجعل المعيار الأخلاقي في دائرة النسبية، وبالتالي سقوط هذا المعيار عن كونه معيارا ثابتا للأخلاق الإنسانية.

وفي الأساس، هل بالضرورة أن تكون الغاية من الفعل الأخلاقي تحقيق السعادة؟ وإذا لم تتحقق هذه السعادة التي يتصورها أرسطو، هل يعني ذلك انهيار الأساس الأخلاقي؟ ألا يمكن إقامة المعيار الأخلاقي على أساس آخر يمكن تحقيقه؟ ألا يمكن إقامة الأساس الأخلاقي على معيار يحمل طابع الإمكان والاتفاق؟

قائمة المصادر والمراجع:

1 -أرسطو طاليس، (1979)، الأخلاق، ترجمة إسحاق بن حنين، حققه وقدمه وشرح له: عبد الرحمان بدوي، ط1 ، الكويت: وكالة المطبوعات.

2 -أغبال أحمد ، (2008)، الأخلاق: كانط وأرسطو.
http://sophia.over-blog.com/article-19444655.html.

3 -بدوي عبد الرحمان، (1984)، موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، ط1، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

4 -بليمان عبد القادر، (2012)، دراسات فلسفية في الأخلاق والسياسة، ط1، الجزائر: كنوز الحكمة للنشر والتوزيع.

5 -ديورانت ويل، (1985)، قصة الفلسفة، ط 5، بيروت: مكتبة المعارف.

6 -مرحبا محمد عبد الرحمان، 1981، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ط2، بيروت: منشورات عويدات.

7- Aristote, (2014), ***Éthique à Nicomaque, traduit par Jules Tricot***, Paris: Éditions Les Échos du Maquis.

8- G. Romeyer-Dherbey, (1983), ***Les choses mêmes. La pensée du réel chez Aristote***, Edition L'âge d'homme.